وقفاتٌ مع آياتِ

اليومِ الآخِرِ

أُلقيت في ذي الحجة ١٤٣٩

أ. أناهيد بنت عيد السميري

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com/

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.

- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.

- الكمال لله -عزّ وجلّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

فهرس الجزء الثّاني

"سلسلة وقفات مع آيات في حجّ ١٤٣٩هـ"

الأخبارعن اليوم الآخر: الجبال

- الوقفة الخامسة ٤
- الوقفة السّادسة ١٣

◆ الوقفة الخامسة ◆

مع الآية (٨٨) من سورة النّمل

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

لازلنا في هذه الجلسات المباركة، في هذه الأيّام المباركة، نبحث ونقف مع آيات من كتاب الله تزيدنا في الإيمان بالله، والإيمان بعظمة الله، والإيمان بلقاء الله.

وقد مرّ معنا أنّه من المهمّ جدًّا الاعتناء بالأخبار الّتي وردت عن اليوم الآخر فإنّ هذه الأخبار فهمها وتصوّرها وبقاءها مذكورة بيننا يُذكّر بعضنا بعضًا سببًا لزيادة الإيمان بالله وباليوم الآخر وكنّا تكلّمنا عن السّماء:

- وكيف أنّها في ذلك اليوم العظيم تكون وردة كالدّهان.
- وكيف أنّ السّماء تنشقّ وتنفطر.
- وكيف يكون الملائكة على أرجائها فينحدروا من أبوابها إلى الأرض وتتشقّق بالغمام.

الوقفة الخامسة مع الآية (٨٨) من سورة النّمل

وفي هذه الجلسة -إن شاء الله- والجلسات الّتي تليها سنتكلّم عن الجبال، فالله -عزّ وجلّ- أنشأ هذا الكون العظيم وخلق بقدرته وإرادته ومشيئته وحكمته الجبال وهي من أعظم مخلوقات الله، ولها وظيفة واضحة قد ذُكرت في كتاب الله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[١] وهذا معناه أنّه لولا الجبال لاضطربت الأرض وارتجفت بسبب فيضان المياه وخاصّة حتى تشتدّ العواصف وتهبّ الرّياح الشّديدة.

كم ذكر لفظ الجبال في القرآن الكريم؟

ذكرت الجبال في كتاب الله ٤٨ مرّة:

ذكرت الجبال في كتاب الله ٤٨ مرّة، طبعًا هذا يدلّنا على عظم شأنها:

وردت "الجبل" ٦ مرّات.

وردت "الجبال" ٣٣ مرّة.

وردت أيضًا بلفظ "رواسي" ٩ مرّات.

هذه الجبال العظيمة الّتي هي آية من آيات قدرة الله، تراها ﴿جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾[٢] وتجد فيها من المعادن وتجد فيها من خيرات الله العظيمة، فهي آية من آيات الله، ودليل على عظمة الله، ودليل على كرم الله للخلق، ففيها من الخيرات الشّيء العظيم، حتّى

---

(١) النحل: ١٥.

(٢) فاطر: ٢٧.

البركانيّة منها يأتي من ورائها خير؛ هذه حال الجبال في الدّنيا لكنّها يوم القيامة يكون شأنها مختلف تمامًا.

وقد ورد في كتاب الله أخبار كثيرة عنها، منها ما ورد في سورة النّمل في ذِكر إزالة الجبال فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[1]

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ﴾ معناها: أنّ النّاس يبصرونها بأعينهم والخطاب لكلّ من تصلح له الرؤية ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ هذا يوم القيامة ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ بمعنى: تراها قائمة في مكانها ثابتة لا تتحرّك ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ بمعنى: أنّها يوم القيامة تُجمع ثمّ تُسيّر فيحسب رائيها لكثرتها أنّها واقفة وهي تسير سيرًا حثيثًا، يعني: تراها العين كأنّها ثابتة باقية على ما كانت عليه وهي في الحقيقة ﴿تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ يعني: تزول عن أماكنها وتسير كسير السّحاب الّذي تسيّره الرّيح، بمعنى: أنّ سيرها سير السّحاب فلا تقع على الأرض، يعني: كأنّها تسير فوق فتبقى سائرة إلى أن تقع على الأرض فتستوي بها.

وهذا السّير قد شُبّه بسير السّحاب في سرعته وفي رؤيته في الأفق، فكيف إذًا تراها العين جامدة؟ لأنّ هذا قِصَرٌ في البصر، فكلّ شيء عظيم وكلّ جمع كثير فإنّه لقصر في البصر، ولكثرة هذا الشّيء الّذي أمامه، ولبعد أطرافه، يراه النّاظر كأنّه واقف وهو سائر! كذلك سير

(١) النمل: ٨٨.

الجبال لا يُرى يوم القيامة لعظمتها، والسّحاب الكثيف الكثير لا يُرى سيره لعظمته.

فإذًا معنى الآية: أنّ يوم القيامة في أحداثه ترى الجبال رأي العين ساكنة والحال أنّها تمرّ في الجوّ مرّ السّحاب الّذي تسيّره الرّياح سيرًا حثيثًا، فشُبّه سير الجبال بسير السّحاب، يعني: كأنّها تمرّ مرًّا مثل مَرِّ السّحاب.

فالجبال أوّلًا: تُزال من أماكنها على وجه الأرض وتُجمع وتُسيّر كما يُسيّر السّحاب ثمّ تُكسر فتعود إلى الأرض كما قال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾[1] معناها: سيرها مثل السّحاب تشبهه في ماذا؟ تشبهه في السّرعة، وأيضًا الّذي يزيدنا بيانًا أنّه تشبهه في أيّ شيء؟ أنّه نرى في سورة القارعة الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾[2] بهذا نرى أيضًا شبهها بالسّحاب.

ما المقصود بقوله تعالى: ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾؟ العهن فيه أقوال، والمنفوش أيضًا فيه أقوال:

- فقيل إنّ العهن هو الصُّوف مطلقًا.
- وقيل إنّه الصُّوف الأحمر وهو أضعف الصُّوف.
- وقيل إنّه الصُّوف المصبوغ بألوان مختلفة، يعني: صوف مصبوغ ومختلط اختلط بعضه ببعض، فهذا هو العهن، يعني: الصّوف

(١) الواقعة: ٥.

(٢) القارعة: ٥.

المصبوغ، وقيل عمومًا إنّه الصُّوف وقيل إنّه الصُّوف الأحمر الّذي هو أضعف أنواع الصُّوف.

هذا الصُّوف الآن منفوش، والنّفش هو: فكّ الصّوف حتّى ينتفش بعضه عن بعض، مثل: النَّدْفِ، يندفون القطن، والصّوف ينفشونه، فالنّفش، يعني: يفكّ الصّوف حتّى ينتفش بعضه عن بعض، يخلخل أجزاءه، ويعني: يفرّق تراصّه، نحن نستعمل هذه كلمة النّفش مثل نشر الشّعر والصّوف والقطن بالأصابع فتُخلخل أجزاؤه.

المهمّ أنّ الجبال تصبح مثل هذا العهن، يعني: الصّوف المنفوش، فيكون يشبهها في ماذا؟ في الضّعف واللّين والخفّة، فتصوّروا بعد شدّتها وصلابتها الآن الّتي تدركها، وتجدها أمامك شامخة عالية، ومن أجل أن يحفروا فيها نفقًا تجد جهودًا عظيمة! ويحفرون النّفق ويبقى الجبل! - سبحان الله- يعني: لا ينهار عليهم لصلابته وقوّته، يتحوّل هذا كلّه إلى شيء يشبه الصّوف المنفوش الّذي يتطاير ويتناثر، معنى ذلك: أنّ الجبال تصبح متناثرة متطايرة كالصّوف المنفوش إذَا جاءت الرّيح طيّرته فيكون متمزّقًا متفتّتًا، فتصوّري هذا وتصوّري السّحاب يكون الأمر واضحًا.

وإذَا قلنا إنّ الصّوف هنا، يعني: العهن المنفوش قصد به الصّوف الملوّن بالذّات فإنّ هذا يقرّب لنا الصّورة أكثر لأنّ الجبال لمّا تصبح منفوشة مثل الصّوف ويكون المقصود الصّوف الملوّن فتبقى على ألوانها الّتي كانت في الدّنيا بيضاء وحمراء وسوداء ولهذا فإنّ هذا القول هو

الأليق في معنى: العهن، لأنّ الله -عزّ وجلّ- قال كما في فاطر: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[1] فهذه ألوانها فالظّاهر أنّ هذه الألوان ستبقى، ويكون العهن المنفوش: تصبح الجبال مثل الصّوف الملوّن بألوان مختلفة، وتسير تكون خفيفة وتطير في الجوّ، يعني: تشبه الصّوف الّذي بسهولة يطير في الجوّ.

فهذا مناسب جدًّا أن نفهم معنى أنّها تمرّ مرّ السّحاب، وأيضًا ممّا يعيننا على هذا الفهم ما ورد في سورة المعارج في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾[2]

فتصوّر هذه الحالة: وتصوّر أنّها تسير سيرًا يشبه سير السّحاب، يقول الله لنا: ﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾ ثمّ يبيّن لنا أنّ هذا الصّنع إنّما إشارة إلى الإتقان: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ فهو متقن على كلّ أحواله حتّى في حالة قيام السّاعة رغم انفراط العقد لكنّه شأن متقن ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ فهذه الآية الكريمة تبيّن لنا ما تؤول إليه من حال الجبال يوم القيامة رغم كثرة عددها، وتراكمها، وشدّة تقاربها، وتلاصقها، إلاّ أنّ هذا الّذي سيكون حالها يخيّل إلى النّاظر أنّها قائمة في أماكنها من وجه الأرض وواقفة وثابتة ومستقرّة في مواضعها، والحال أنّها زائلة، وذاهبة عن أماكنها، وتسير في الأجواء والآفاق سيرًا حثيثًا مثل سير السّحاب الّذي تسيّره الرّياح، وهذه الحال: يعني تسيير الجبال بهذه الحال مثل خلقها أوّل مرّة يكون تحت نظام

(١) فاطر: ٢٧.

(٢) المعارج: ٩.

محكم متوازن قدّره الله، فهو من فعل الله الّذي أحكم وأحسن كلّ شيء.

فإذَا فُهم هذا، يُفهم أنّ الّذي قدر على خلق الجبال الشّامخة الثّقيلة وعلى إرسائها ثمّ على تسييرها وتفتيتها وتطييرها يوم القيامة فإنّه يقدر على بعث العباد وعلى محاسبتهم وعلى مجازاتهم.

تبيّن لنا أنّه كيف ستكون في ذاك اليوم: سريعة السّير، شديدة الاندفاع، خفيفة، متناثرة الأجزاء ثمّ تتكسّر وتستوي مع الأرض، فإذًا هذه مرحلة واضحة: تتزلزل الأرض وتضطرب وتتحرّك بشدّة وتتفتّت الجبال وتسير إلى أن تصبح: ﴿هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾ ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾[1] يعني: ترجّ الأرض، بمعنى: تتحرّك تحرّكًا شديدًا فتهتزّ وتضطرب بطولها وعرضه، بمعنى أنّها: تتزلزل والجبال تتفتّت.

﴿بُسَّتِ﴾ هذه من البسيسة، الدّقيق الّذي يخلطونه بِسَمن وهذه مثل: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾[2] يعني: رمل مُتَهَايِلٌ.

وهناك قول آخر في معنى: ﴿بُسَّتِ﴾ معنى: سُيّرت بين الجبال والأرض، فيقصد ببسّها: سَوْقَهَا وتسييرها، وهذا مثل آية الكهف: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾[1].

---

(١) الواقعة: ٤-٦.

(٢) المزمل: ١٤.

فهذه الزّلزلة وهذا الاضطراب سيفتّت الجبال ويدمّرها تدميرًا بعد أن كانت غاية في الصّلابة وغاية في العظمة وغاية في الشّموخ، تصبح متبعثرة، متناثرة، متطايرة إلى أن تصبح هباء منثورًا، يعني: تصير غبارًا مثل الّذي يُرى في شعاع الشّمس إذَا دخل من الكوّة، من النّافذة فَتَرَيْنَ فيها مثل الغبار فتتحوّل كلّ هذه الجبال إلى هباء منثور.

وأنت تصوّري لو الجبال سيحصل فيها هذا الأمر وماذا عمّا بناه الإنسان سواء من قصور أو سجون أو جسور فالأمر أوضح من أن يبيّن فكلّ هذا مقارنة بالجبال لا شيء.

فإنّ هذه الجبال: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾[٢] تصل إلى هذه الحال من الاضطراب فتصبح مثل الرّمل السّائل المتناثر، يعني: مثل كثبان الرّمل، بعد أن كانت جبال حجارتها صمّاء تصبح مثل الرّمل المُنهال المُتناثر، ثمّ بعد ذلك تبسّ فتصبح مثل الهباء المنثور ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ ﴿كَثِيبًا﴾ يعني: كأنّه ربوة، ﴿مَّهِيلًا﴾ يعني: رخو ليّن إذَا وطأته الأقدام زلّت.

المقصد من هذا كلّه: الخبر عن ذاك اليوم والفزع الّذي يشيب له رؤوس الولدان، فتهتزّ بمن عليها اهتزازًا عنيفًا شديدًا، وتزلزل الأرض بما عليها من الجبال الشّامخة الرّاسية، والصّخور الصّمّاء القاسية، فتنهال

(١) الكهف: ٤٧.

(٢) المزمل: ١٤.

وتتفتّت وتنهار، وتصير بعد كلّ هذه الصّلابة مثل: تلّة الرّمل السّائل المتناثر المنتشر! فكيف بالنّاس الضّعاف العجزة؟!

وقد ورد في سورة النّبأ خبر يزيد الأمر بيانًا، وهو قوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾[1] ﴿سُيِّرَتِ﴾ يعني: ذُهب بها عن أماكنها، وهذا يرجّعنا لأوّل آية الّتي ابتدأنا بها في وصف الجبال أنّها سائرة ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ إذًا معنى ذلك: أنّها سُيّرت ﴿تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ بعد تسييرها، تمشي، يعني: سائرة ماشية، فمعنى هذا أنّ هذه مرحلة من مراحل أنّك تراها جامدة وهي تمرّ مرّ السّحاب فقد ﴿سُيِّرَتِ﴾، نُقلت وقُلعت وسِير بها فكأنّها تسير من مكان إلى آخر فتُنقل وتُفتّت إلى أن تُصبح سرابًا ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ والفاء هذه تفيدنا بأنّه ليس هناك مهلة كبيرة، والسّراب: كما هو معلوم ما يلوح في الصّحاري ممّا يشبه الماء وهو ليس بماء، فإذًا تُقلع يوم القيامة من أماكنها وتُزال حتّى يُخيّل إلى النّاظر أنّها شيء وهي ليست بشيء مثل السّراب يظنّه الرّائي من بُعد أنّه ماء وليس بماء.

فمعنى هذا: أنّ حال السّماء بعد اقتلاعها وبعد تجميعها وسيرها مثل السّراب تأكيدا لتلاشيها وانعدامها.

إن شاء الله في الجلسة المقبلة نُكمل ما تيسّر لنا في الكلام حول الجبال.

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

(١) النبأ: ٢٠.

◆ الوقفة السّادسة ◆

مع الآية (١٠٥) من سورة طه

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥)﴾

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

لازلنا بفضل الله في هذه الأيّام المباركات نقف مع بعض الآيات الّتي نرجو من الله أن تزيدنا إيمانًا باليوم الآخر، وقد مرّ معنا الكلام عن السّماء وأحوالها، وماذا ستكون يوم القيامة؟ وكيف أنّها تتلوّن؟ وكيف أنّها تنشقّ؟ وكيف أنّها بعد جمودها تصبح سائلة؟ وكيف تنزل الملائكة منها؟ وكيف أنّك بعد أن لا تجد فيها شقًّا تصبح أبوابًا؟

ثمّ انتقلنا بعد ذلك للكلام عن الأرض، وفي الأرض ابتدأنا بالكلام عن الجبال، وقد مرّ معنا في الكلام عن الجبال أخبار عظيمة.

الوقفة السّادسة مع الآية (١٠٥) من سورة طه

ما هي الأخبار الّتي أتت في سورة طه في سياق الخبر عن يوم القيامة؟

ونقف الآن أمام الأخبار الّتي أتت في سورة طه في سياق الخبر عن يوم القيامة:

يقول الله عزّ وجلّ: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨)﴾[1]

الخبر عن يوم القيامة أتى في سياق الكلام عن القرآن العظيم، يقول عزّ وجلّ: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ وقد كانت الآيات السّابقة في الخبر عن موسى -عليه السّلام- مع فرعون، وموسى -عليه السّلام- مع قومه ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ والمقصود: القرآن ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ يعني: يوم القيامة هذا المُعرض عن القرآن يحمل

(١) طه: ٩٩-١٠٨.

وزرًا، والوزر يعني: العقوبة الثّقيلة، فسُمّيت وزرًا تشبيها في ثقلها على المُعاقب وصعوبة احتمالها مثل الّذي يُثْقِلُ على الحامل ويُنقض ظهره، ولذلك الله -عزّ وجلّ- يقول: ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ يعني: العقوبة هذه شُبّهت بالشّيء الّذي يحمله الإنسان على ظهره ويكاد ينقض ظهره، وما أسوأ هذا الوزر حملًا ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ وهو القرن الّذي يُنفخ فيه ويُدعى به النّاس إلى المحشر ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ فيأتي هذا الموقف العظيم وقد ازرقّت عيونهم واسودّت وجوههم زُرقة تتشوّه بها خلقتهم، فتجد هؤلاء ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يتكلّمون بينهم بصوت منخفض، ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ يعني: يتسارّون لأنّك في ذاك الموقف لا تسمع إلاّ همسًا، فيتخافتون لأنّهم امتلأت صدورهم من الرّعب ومن الهول، ولأنّهم بسبب الخوف صاروا في منتهى الضّعف فما عندهم قدرة حتّى أن يرفعوا أصواتهم ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ الظّاهر أنّهم يرون أنّهم لبثوا في الدّنيا هذه المدّة القصيرة أو لعلّهم إذَا حُشروا في أوّل الأمر وعاينوا الأهوال فلشدّة وقوع الأهوال ذُهلوا عن مقدار عمرهم في الدّنيا، فكأنّهم يقولون: (كم عشنا!؟) ثمّ إنّهم في هذا يرون ما يرون من الأهوال، فيقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾.

فوصف الله -عزّ وجلّ- لنا يوم القيامة وحكى عمّن يسأل أنّه: (كيف سيكون هذا الحال؟ كيف يُحشر النّاس؟) فكأنّهم يسألون عن الجبال!

كأنّهم يرون الجبال حائلة أو مانعة من أن يجتمع الخلق، ومن أن يخرجوا بهذه الطّريقة.

فهؤلاء القوم يفكّرون بعقولهم الدّنيويّة ولازالوا يتمسّكون بهذا التّفكير أنّه: (إذَا قلتم بأنّ الدّنيا ستفنى فإذًا دعها تبدأ تنقص فنحن لا نراها تنقص! نحن نرى الدّنيا كما هي ثابتة!) فهم ليسوا متصوّرين بأنّ هذا كلّه يجري مجرى سريع كعقد انفرطت حبّاته، فيقولون: (لو كانت الدّنيا حقيقة ستنقضي لكانت الدّنيا ابتدأت بالنّقصان!) ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ لأنّ الّذي يظهر في هذا السّياق أنّهم يريدون أن يطعنوا في الحشر والنّشر.

﴿يَنسِفُهَا﴾ يعني: عائدة على الجبال، يعني: تصير الجبال كالهباء المنثور تُذرى تذرية فتزول كلّ الحوائل ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ فحين يزيلها الله عزّ وجلّ، حينئذ لا يكون هناك أيّ شيء حائل، بل تصبح هذه الجبال ونسفها من الأهوال الّتي تزيدهم خوفًا وفزعًا، فتصبح الأرض: ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ لا نبات عليه، يعني: أرض ملساء مستوية ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ معنى ذلك: ما فيها أيّ قدر من الاعوجاج، ولا فيها أيّ نتوء حتّى ولو كان يسيرًا فهي في غاية الاستواء، ما فيها أماكن منخفضة وأماكن مرتفعة، بل تتّسع للخلائق ويمدّها الله مدّ الأديم، فيكونون في موقف واحد يسمعهم الدّاعي وَيَنْفُذُهُمْ البصر، ولذلك قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾.

الشّاهد: أنّ الجبال في ذاك الموقف ﴿يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ يعني: النّسف اتّفقنا بأنّه القلع، يقتلعها من أصلها ويجعلها هباء منثورًا، فنسف البناء، ينسفه، يعني: يقتلعه من أصله.

﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي: يجعل الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ وقد يصلح أن يكون بأنّ هذه الجبال تختفي فلا ترى في الأرض مقرّ الجبال، فالآن واضح لنا بأنّ الأرض في ذاك اليوم تكون ملساء خالية من الارتفاع والانخفاض ومن أنواع الانحراف والاعوجاج.

فتصوّر كيف أنّ النّاس يرون إزالة الجبال يوم القيامة؟ وكيف إذهابها؟ ومحقها؟ وتسييرها؟ تُقلع من أصولها وتسير، وتطير، وتتحرّك، الظّاهر بإرسال الرّياح عليها إلى أن تصبح هباء منثورًا، وتُترك الأرض ملساء، مستوية، بارزة، مكشوفة لا انخفاض فيها ولا ارتفاع، ولا حجر ولا شجر.

فهذا مشهد رهيب، وموقف غريب، ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾[1] ولكن غشيهم من هول المنظر ورعب المَحضر ما غشيهم.

هذا حال الجبال الصّلبة والصّخر الصّمّاء أنّها تدكّ هذا الدّكّ! فكيف بابن آدم الّذي هو مضغة لحم، نسأل الله أن يُليّن قلوبنا ويجعلنا ممّن يسمع آيات الله تُتلى فيلين قلبه ويخشع، وقد قال

(١) الحج: ٢.

سبحانه وتعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[1].

ومثل هذه الآية ما ورد في سورة المرسلات: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾[2] يعني: قُلعت من أماكنها، فأتى هذا في سورة المرسلات في سياق الخبر عن أهوال يوم القيامة وما سيكون من طمس النّجوم ومحو ضوئها، وفتح السّماء وشقّها.

في سورة الحاقّة يقول الله عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥)﴾[3] هذا الخبر أيضًا في بيان كيف يحصل خراب العالم؟ وهذا شروع في بيان نفس الحاقّة كيفيّة وقوعها، فحُملت الأرض والجبال، يعني: رُفعتا وضُربتا ببعضهما من شدّة الزّلزال، وهذا شأن عظيم لا يتصوّره إنسان، فتُدكّ الأرض والجبال ويحصل من الخراب في الدّنيا ما يحصل، فتفتّت الجبال وتضمحلّ، وتختلط بالأرض فيصبح الجميع ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ كما مرّ معنا في طه.

وهنا قد مرّ معنا: ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾[4] لأنّ السّماء مكان سُكنى الملائكة وحين تنشقّ يبقى الملك على أرجاء السّماء، يعني: على حافّتها ثمّ ينزلون إلى الأرض، فهذه أيضًا

---

(١) الحشر: ٢١.

(٢) المرسلات: ١٠.

(٣) الحاقة: ١٣_١٥.

(٤) الحاقة: ١٦_١٧.

آية الحاقّة تصوّر لنا أنّ الأرض والجبال تُحملان فتُدكّا دكّة واحدة، معناها: أنّ الأرض والجبال تُزلزل وتُدقُّ، تُسوّى الأرض وتفتّت الجبال حتّى تعود هباء منثورًا، فهذه أيضًا دلالة على إزالة الجبال واضمحلالها وتسويتها بالأرض، وهنا: الدّك، يعني: الدّقّ والكسر.

رُحماك بنا يا ربّ، رُحماك.

الأخبار عن إزالة الجبال يوم القيامة في القرآن الكريم

ما هي الحالات الّتي جاء التّعبير فيها عن إزالة الجبال يوم القيامة في القرآن الكريم؟

فمن هذا كلّه سنرى أنّه وردت في إزالة الجبال يوم القيامة ١٢ آية في القرآن، وهذه الآيات كلّها تدلّنا على شأن عظيم سيكون، وكلّ مرّة تقرئين الآيات الّتي تدلّ على هذا الشّأن يزداد تأمّلك للجبال هنا في الدّنيا وثباتها وقوّتها، وكيف تكون دليلًا على عظمة الله، وفي نفس الوقت نرى كيف هذا الصّنع العظيم سيدكّه ربّ العالمين، وقد جاء التّعبير عن إزالة الجبال يوم القيامة بألفاظ متعدّدة، مثل:

- رجف الجبال.
- وصيرورتها مثل الكثيب المهيل.
- ونسفها.
- وحملها.

- ودكّها.
- وصيرورتها مثل الصّوف المنفوش.
- وبسّها.
- وصيرورتها مثل الهباء المنبثّ.
- وتسييرها.
- ومرورها مثل مرور السّحاب.
- وصيرورتها مثل السّراب.

فالله المستعان وعليه التّكُلان ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

فنذكر هذه الحالات باختصار مع الآيات:

ونتذكّر أنّ تعدّد الألفاظ المعبّرة عن الحقيقة الواحدة إنّما هي زيادة في التّأكيد والتّوضيح ومطلب منّا أن نفكّر فيها، مطلب منّا أن نفكّر في هذه الحوادث والحالات العديدة الّتي يعقب بعضها بعضًا.

فمن حالاتها أن تتزلزل وتتزعزع وتصير مثل الرّمل:

كما جاء في قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ في المزّمّل الآية (١٤).

ومن حالاتها أن تُقلع وتُستأصل من أصولها:

كما جاء في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ في طه الآية (١٠٥).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ في المرسلات الآية (١٠).

ومن حالاتها أن تُرفع عن مواضعها ومحالّها وأن تُدقّ وتُكسر:

كما في قوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ وهذه في الحاقّة الآية (١٤).

ومن حالاتها أن تصبح مثل الصّوف المنفوش:

كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ في القارعة الآية (٥).

وفي المعارج الآية (٩): ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾.

ومن حالات الجبال أيضًا أن تتفتّت وتتبدّد وأن تصبح مثل الغبار المنثور:

﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾ في القارعة الآيات (٥_٦).

ومن حالاتها أن تسير وتطير في الهواء بين السّماء والأرض:

كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ كما في سورة الكهف الآية (٤٧).

وفي قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ في النّمل الآية (٨٨).

وفي الطّور الآية (١٠): ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾.

وفي النبأ الآية (٢٠): ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾.

وفي التّكوير الآية (٣): ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾.

فهذا كلّه دليل على أنّها تسير وتطير في الهواء.

ومن حالاتها أن تصير مثل السّراب لا شيء:

يعني: تراها شيئًا وهي لا شيء:

﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ في النبأ الآية (٢٠).

وآخر حالاتها أن تقع على الأرض فَتُسَوَّى بها:

مثلما ورد في طه الآيات (١٠٥_١٠٧): ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ فيحشر الخلائق على تلك الأرض المستوية، مثلما مرّ معنا: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[1]

فهذا عمومًا الّذي يحصل، والمهمّ في هذا كلّه أن تعلم: أنّنا سَنُقبل على أمر عظيم، فالسّماء العظيمة شديدة الصّلابة تصير مثل عَكر

(١) الكهف: ٤٧.

الزّيت، أو مثل المُذاب من المعادن، والجبال الثّابتة الرّاسية الشّامخة تصير مثل الصّوف المنفوش، وهذا كلّه وهي ليست مكلّفة! فكيف سيكون حال الإنس والجنّ وهم مُكلّفون ومحاسبون؟ فرُحماك رُحماك ربّنا بنا يوم ﴿تَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[1]

يجدر هنا التّنبيه: أنّه لسبب ما حصل خطأ في تفسير بعض الآيات الّتي تتّصل بالجبال، خصوصًا مع دخول مسألة الإعجاز العلمي كإرادةٍ لنشر الدّين وبيان أنّه صحيح، وهذه إرادة -الحمد لله- طيّبة لكن حين يدخل النّاس في الخطأ وهم لا يعلمون لا يشعرون نتيجة جهل أو نتيجة غفلة -الله أعلم- مع صحّة النّيّات لكن تبقى الأخطاء أخطاءً، ولا نستطيع أن نتجاوز عن الأخطاء خصوصًا لو كانت في كتاب الله أو في سنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

ففي قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ استُشهد بهذه الآية على شيء من الإعجاز العلمي متّصلًا بحركة الأرض السّريعة، إلى آخر ما قالوا.. لكن هذه الآية أتت في سياق الكلام عن اليوم الآخر وهذا جزء من عقيدتنا في اليوم الآخر: نحن نؤمن بأنّ الله جعل الأرض مستقرّة بسبب أنّه جعل الجبال رواسي فيها؛ ونؤمن أيضًا أنّ يوم القيامة سيُزيل الله الجبال ويُعدمها يوم القيامة، فلا يغرّك عظمتها وارتفاعها وصلابتها! فهي يوم القيامة ستزول لكنّها

(١) الحج: ٢.

الآن في الدّنيا هي: رواسي شامخات. فوجب التّنبيه على ذلك وبيان أنّ: هذه الآية إنّما يُقصد بها يوم القيامة.

وعلى ذلك فإنّنا نؤكّد ألاّ نتعجّل في الحكم على الآيات، أو في أخذ الآيات على ما اشتهر من ألسنة النّاس، فتوجد أمور اشتهرت على ألسنة النّاس أنّها معانٍ للآيات، ويدخل النّاس بعد ذلك في جدل عظيم حول شيء أصلًا هو ابتدأ خطأ!

إذَا تيسّر إن شاء الله في جلستنا القادمة نقطع حديثنا عن الآيات المتّصلة بيوم القيامة، نقطعه بالكلام حول بعض الآيات الّتي يتيسّر لنا ذكرها في جلسة أو جلستين ونقول إنّ هذه الآيات قد فُهمت خطأ نتيجة أنّ النّاس أخذوا وتلقّوا فهمها عن بعضهم دون أن يرجعوا إلى الكتب المحقّقة، أو أحيانًا يأخذونها من تفسير لكن لا يتحقّقون هل أنّ هذا هو القول الرّاجح؟! أو القول الصّائب؟! فيحصل قول على الله بلا علم وهذا من أعظم الرّزايا والبلايا أن تجد العلم بين يديك ثمّ تتلقّاه من ألسنة النّاس. فالله المستعان وعليه التّكُلان ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته